

تأثيرات الحقل اللساني على المنظومة المصطلحية النقدية إشكاليات المصطلح

سليمة عذاوري

(جامعة -أحمد بوقرة- بومرداس)

تحتكم العملية الاصطلاحية لقانون خاص يجعل منها عملية معقدة وخاضعة لأنظمة عدة، يحتل فيها النظام اللغوي المساحة الأوفر، حتى في الحالات التي تتجاوز فيها هذه العملية ما هو لساني إلى حقول معرفية أخرى كالحقل النقدي مثلا، ذلك أن حالة التعالق بين اللسانيات الحديثة والنقد تتجاوز أطر التأثير المعرفي والنظري إلى الاقتراب المصطلحي. وهو ما يجعلنا نؤثر -في هذا المقام- الحديث عن بعض المصطلحات التي يتجلى من خلالها هذا التعالق، تستوقفنا في ذلك إشكاليتان أساسيتان:

أولاهما: أننا نعتبر المصطلح تحديا يواجه العملية النقدية، بالنظر إلى الموقع الخاص الذي تتخذه صناعة المصطلح مقابل المعجم ووضعيته باعتباره يمتلك صفة فوق لغوية¹. يطرح هذا التحدي على مستوى المنظومة النقدية عامة، غير أنه يكتسي طابعا أكثر أهمية وصعوبة إذا ما ارتبط بمجموع المصطلحات التي نزحت من حقول لسانية واضحة المعالم لتستقر في النقد الأدبي، إذ يتعين، والحال هذه، معرفة الكيفية التي تمت من خلالها عملية النزوح وما ترتب عنها من تغيير لأصلها اللساني بالنظر إلى طبيعة المفاهيم التي صارت تمثلها نقديا.

وثانيهما: أن التحدي الاصطلاحي السابق يتجاوز في المنظومة النقدية العربية كونه تحديا إلى كونه إشكالية، مردها صعوبة اجترار المصطلحات وتقنينها وإثباتها في حقل الدراسات النقدية. حيث لا يختلف اثنان حول طبيعة المأساة التي تعاني منها المنظومة الاصطلاحية العربية، خاصة إذا تعلق الأمر بمفاهيم نقدية تنتمي إلى سياقات

أخرى غير السياقات العربية الخاصة، ما يستوجب مراعاة وضعياتها الأولى قبل نقلها للوضعيات اللغوية والنقدية العربية.

وعلى هذا الأساس، يستوجب فهم مصطلح ما ووضعه بالشكل الصحيح تحديد الحقل المصطلحي ومستخدميه وكذا الفكرة التي عليه تغطيتها بالدرجة الأولى². وهو ما يقودنا، وفق هذه الرؤية، نحو تحديد الحقل المصطلحي وكذا المفاهيمي للمصطلحات التي آثرنا استخدامها باعتبارها نماذج لاستقراء عملية التأثير، وتتبع استخداماتها المصطلحية ومفاهيمها بالدرجة الأولى، مادام ذلك ضروريا لفهم المصطلح في حد ذاته.

1. مصطلح عبر اللسانية Trans-linguistique

تظهر علاقة هذا المصطلح باللسانيات منذ الوهلة الأولى بالرغم من أنه في حقيقته يحمل دلالة التجاوز للحقل اللساني ويمثل حقل دراسات خاص وقائم بذاته هو الحقل التداولي.

تاريخيات، يعود ورود هذا المصطلح إلى الناقد الروسي ميخائيل باختين M Bakhtine الذي أراد بناء قاعدة لغوية تعتمد على ما يمنحه الفكر المادي من وسائل، رافضا من خلالها كلا النزعتين الأوربيتين في تحليل اللغة، سواء النزعة الموضوعية المجردة Objectivisme abstrait، وهي النزعة التي قادها دو سوسير De Saussure الذي جعل من النظام اللغوي نظاما مستقلا وقائما بذاته بعيدا عن أي إبداع فردي. وقد انتقد باختين هذا التوجه التجريدي باعتباره توجها يتحدث عن اللغة انطلاقا من كونها نظاما -لغويا- صرفا، متناسيا أن ما يهم المتحدثين بلغة ما ليس هذا النظام فحسب، بل استخدامه لإيصال واستقبال أفكار بعينها. بالإضافة إلى أنه ليس بالإمكان -بحسب باختين- عزل اللغة عن المحتوى الإيديولوجي وأن عملية العزل هذه حين مورست على اللغات القديمة (الميتة)، لم يكن البحث فيها يصبو إلى أكثر من التعرف على قوانين اشتغالها، في حين أن ما هو مطلوب من دراسة اللغات الحية هو فهمها. أما النزعة الثانية التي سادت الدراسات الأوربية فهي النزعة الفردانية

الذاتية subjectivisme individualité التي يمثلها فوسلر Fossler وهمبولدت Humboldt. والتي بعكس النزعة السابقة، قدست سيكولوجيا الفرد من حيث أنها المولد لفعل الكلام Parole، الذي يعتبر ظاهرة فردية أساسية في اللغة. في حين رأى باختين أن أهمية الفرد في عملية الكلام لا تلغي القدرة على دراسته بشكل موضوعي بالنظر إلى أن كل مجتمع ومحيط إيديولوجي معين يشتمل على جزء يشترك فيه المتحدثون، وهو ما يسمح بعملية التواصل مثلما يسمح بعملية الدراسة³.

بمقابل هاتين النزعتين اللتين أغرقنا إما في الموضوعية المفرطة أو الذاتية المفرطة، وجد باختين أن جوهر اللغة يكمن في جانبها التفاعلي اللفظي، وأعطى للعلامة دورا جوهريا في عملية التواصل الاجتماعي، وهو الدور الذي لا يظهر في شيء كما يظهر في الكلام حيث ان الكلمة هي ظاهرة إيديولوجية للغاية⁴، وتتأتى هذه الأهمية الخاصة للكلمة من كونها تملك خصوصية تجعل منها أولى وسائل الوعي الفردي وهي نتاج وسائل عضوية فردية، ولا تحتاج إلى أدوات خارج الجسم extra corporel، ما يجعلها أداة التعبير الداخلي والوعي الفردي الذي ينمو بها، ولذلك فقد شكلت -بالنظر إلى كونها داخلية مثلها مثل الوعي- أحد أهم قضايا فلسفة اللغة⁵. إضافة إلى أن هذه الخصائص التي تتمتع بها، حولتها لأن تكون الموضوع الأساسي لدراسة الإيديولوجيا.

إن واقع الكلمة رهين وظيفتها باعتبارها علامة، وهو ما يعطيها أولوية وأهمية في دراسة الإيديولوجيا، كونها الأكثر قدرة على التمثيل، مقارنة بباقي أنظمة العلامات الأخرى -خاصة بمحيط أو مجال ما من مجالات الخلق الإيديولوجي- حيث أن الكلمة -بالنسبة لباختين- هي العلامة الوحيدة التي تتميز بالحيادية تجاه أي وظيفة إيديولوجية خاصة، ما يمكنها من أن تقوم بأدوار إيديولوجية مختلفة جمالية، وعلمية، وأخلاقية، ودينية...⁶ وحتى تفهم وظيفة الكلمة باعتبارها أداة للوعي ينبغي دراستها على أنها علامة اجتماعية، الدور الذي يدخلها كل مجالات الإيديولوجيا رغم التحفظات، مادامت قادرة على مصاحبة أي فعل إيديولوجي مهما كان نوعه.

لقد تبنى باختين التفاعل الحي للكلمة، حيث تكتسب هذه الأخيرة معنى جديدا يضاف إلى معناها الأول كلما غادرت مجالها اللغوي البحث -المشترك الموضوعي- واتجهت خطابا نحو الآخر-الكلام باعتباره ممارسة فردية- ولا تتم هذه العملية فقط في اللحظة الأولى لخروج الكلمة إلى سياق استعمالها، بل تحصل على معان إضافية كلما دخلت حلقة جديدة من حلقات التواصل. ومن ثمة فإن اهتمام باختين ينصب، في المقام الأول، على العلاقات القائمة بينها انطلاقا من مبدأ جوهري يقضي بأنه "لا وجود لتعبير لا تربطه علاقة بتعبيرات أخرى"⁷. ويُعرّف هذه العلاقات على أنها علاقات حوارية يشترط فيها دخول الكلمة في شبكة جديدة من العلاقات تمكنها من الحفاظ على حيويتها، ما يعني أن تنتقل الكلمة من سياق استخدام معين إلى سياق استخدام جديد دون أن تخسر محمولاتها السياقية السابقة ودون أن تنغلق على لحظة أو سياق واحد. وتعتبر لحظة الدخول هذه، أي لحظة التبادل الحوارية، اللحظة التي تستقي منها الكلمة حياتها، وهو ما يمكنها من أن تظل قادرة على التفاعل مع مختلف الخطابات الجديدة والقديمة بدل الجمود الذي تفرضه عليها انعزالياتها اللسانية. وتتحول الكلمة داخل هذه اللحظة الحية إلى ملفوظ يمتلك "ملفوظا" يعبر من خلالها عن حالة ما وتقوم العلاقة الحوارية- هنا بين الكلمة ووضعيتها الحالية وكل وضعيات استخدامها السابقة، حين كانت وستكون كذلك ملفوظا لمستخدمين آخرين، حيث نجد أنها تقوم بالدور الجديد المنوط بها في عملية التخاطب داخل السياق الحالي محافظة في الوقت ذاته على سياقاتها السابقة ومفتوحة على إمكانات استخدام مستقبلية، وهو ما يمنحها حيوية وديمومة وسط هذا التفاعل المستمر. ويمكن أن تقوم علاقة الحوار هذه بين ملفوظات تامة حيث لا تمثل حوارية الكلمة إلا أصغر مستوى من مستويات هذه العلاقة Microdialogue.⁸

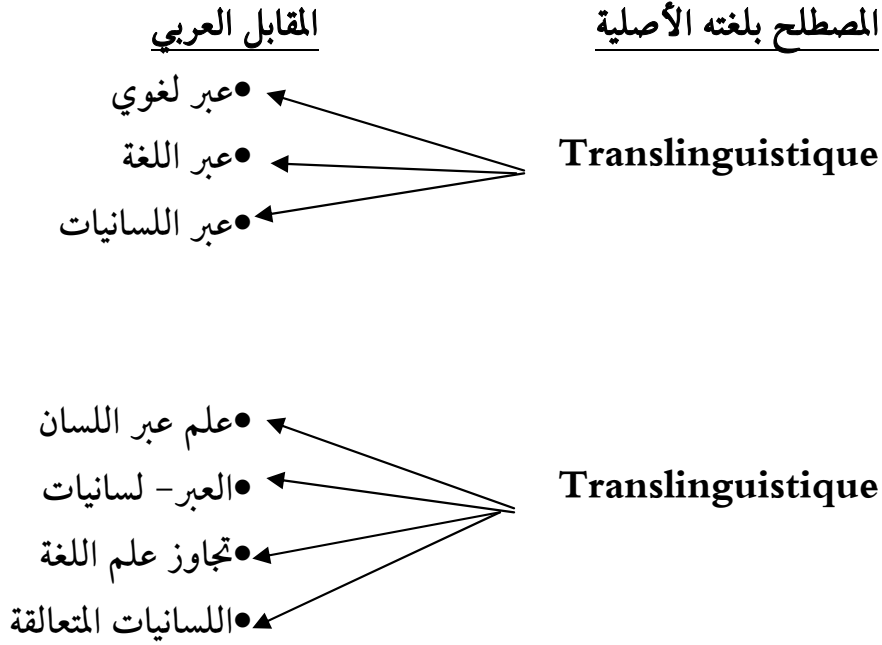
ومن ثمة، تكون فكرة الحوارية قد فتحت المجال لحقل جديد من الدراسات يبتعد عن الحقل اللساني، ما دامت أهمية الكلمة- كما ينظر إليها باختين - لا تؤخذ بمعزل عن المكان الذي يحدث فيه التبادل الحوارية. والمكان هنا يعني المحيط الذي تتم

فيه عملية التبادل، والذي لا يقل أهمية عن الكلمة في حد ذاتها إن لم نقل أنه ما يمنحها أهميتها الخاصة، لأن حياة هذه الأخيرة تقترب بانتقالها من متلق إلى آخر، ومن سياق إلى آخر ومن مجموعة اجتماعية إلى أخرى، محتفظة عبر كل مراحل انتقالها هذا بمحملاتها السياقية التي اكتسبتها خلال رحلتها. كما يعتبر أن كل الملفوظات تحوي على كلمات الغير التي قد تكون بدورها خفية أو ظاهرة جزئيا، إلا أنه يشترط في ذلك أن نأخذ بعين الاعتبار الشروط الحقيقية لعملية التبادل اللفظي أثناء عملية التفحص. وهذا ما يجعلنا نصر على أن باختين يهتم كثيرا بسياق عملية التبادل اللفظي التي يمكن من خلالها أن نحدد المعنى ونفهم مختلف التقاطعات بين التلفظ⁹.

تفرض رحلة الكلمة هذه، وكذا الحضور الخاص الذي يوقعه مصطلح سياق Contexte، خروج الطرح الباختيي عن مضمار اللسانيات وتوجهه نحو درس جديد أسماه باختين "بالميتالسانية" Métalinguistique. أو "عبر اللسانية" Trans-linguistique مقدا تبرير هذا التوجه بالاعتماد على تعريفه لكل من الدراستين اللتين تشتركان في اهتمامهما بالظاهرة نفسها-أي الكلمة-، وتختلفان في اختيارهما لزاويا نظر مختلفة. فمن الزاوية اللسانية ليس هناك وسيلة لدراسة العلاقات الحوارية، ذلك أنه في اللغة كموضوع للسانيات "لا توجد ولا يمكن أن توجد أي علاقة حوارية"¹⁰. خاصة أنها لا تأخذ بعين الاعتبار كل ما قد يدخل مادة أو ميدانا قابلا لفعل التبادل الحوارى كاللغات الطبقية واللهجات المختلفة وحتى الصور المأخوذة من فنون أخرى. وعلى العكس من ذلك تهتم الدراسة عبر اللسانية بكل هذه المستويات باعتبارها المحدد لسياقات حضور الكلمة ومدلولاتها.

ولئن كان هذا المصطلح واضح المعالم من حيث حقله المفاهيمي وتحديد المصطلحي بالرغم من بعض الإشكاليات التي تفرضها عملية تحويله من الميتالسانية إلى عبر اللسانية¹¹. نسجل هنا عملية انتقال هذا المصطلح إلى المنظومة النقدية العربية باعتباره واحدا من المصطلحات التي انتقلت إلى النقد العربي وشكلت أحد

أوجه واقعه الإشكالي من حيث التعدد والاختلاف والشتات وعدم الاستقرار على
مقابل مصطلحي واحد. ويكفي للدلالة على ذلك إيراد بعض المقابلات التي تعرضها
المادة النقدية لهذا المصطلح



السيماناليز / التدليل / التصحيف / Sémanalyse/
Signifiante/Paragramme

نورد هذه المصطلحات مجتمعة هنا نظرا لارتباطها ببعضها البعض، ولورودها
في سياق مشترك تمثل فيه السيماناليز الحقل الذي يحوي كلا من مقولتي التدليل
والتصحيف، والذي يعيد رسم العلاقة مع اللغة ومع التحليل السيميائي وذلك
بإدخال عناصر أو حقول أخرى تتضام لتطوير الدراسات النصية باعتبار أن مقولة
النص مقولة تتجاوز في حد ذاتها الحقل الواحد. وهو المصطلح والمجال الذي سخرته
جوليا كريستيفا Julia Kristeva لدراسة النص الأدبي والإحاطة بخصوصية اللغة

الشعرية حيث شكل الاهتمام بالنص -النص الأدبي- وبناء نظرية خاصة به جزءا كبيرا من اهتمام الباحثة، محاولة تحديد المعالم التي تجعل النص الأدبي مختلفا وتخوله إذاك لأن يحظى بدراسة خاصة، وهو ما جعلها تبحث عن العلم الذي يمكنه أن يدرسه، ويصل إلى تفكيك ممارساته والوصول إلى دلالاته: "السيماناليز هي نظرية الدلالة النصية، التي تعتبر العلامة عنصرا ، محافظة في ذلك على تمثيل هذا التوالد، هذا المسار الذي في داخله للتوالد¹²

تخص السيماناليز إذن وفق هذا التعريف دراسة التدليل **la signifiante**

وهو المفهوم اللاكاني الذي تستخدمه كرستيفا بوجهة أكثر سعة بحيث يمكنه التعبير عن خصوصية الكتابة الشعرية ولا نهائية المعنى في النص¹³ باعتباره عملا ممارسا داخل اللغة¹⁴. وهي بهذا المعنى، أرادت أن تخرج دراسة النص الأدبي من مجال الدراسات السابقة، سواء تلك التي تربطه بواقع آخر غير واقعه، أو تلك التي تجعل منه تمظها لسانيا بحثا. ذلك أن النص الأدبي يستخدم اللغة، إلا أن فعله يلتصق بمعناه، مما يخرج اللغة عن مسارها العادي ألا وهو أن تمنح معنى ما. وقد قدمت في كل خطوة من خطوات نقدها لهذه التوجهات ما يدحضها، ويؤكد في الوقت ذاته خصوصية النص الأدبي ما أوصلها إلى تعريفه تعريفا خاصا يعتبره مجموع ملفوظات نحوية ولا نحوية. وهو ما يعني أن النص ممارسة معقدة لا يمكن أن تحدد أو تفهم les graphes إلا بنظرية للفعل الدال الخاص الذي يتمظهر من خلال اللغة. وهذه العلاقة الخاصة مع اللغة، من خلال عملية التمظهر، هي التي تجعلنا حينها في حاجة ما إلى la description linguistique الوصف اللغوي (اللساني) بوصفه مساعدا على اكتشاف جانب من النص يخص تمظهره.

"ليس النص ظاهرة لسانية، بتعبير آخر، ليس دلالة مبنية تقدم ضمن مدونة لسانية ينظر إليها باعتبارها بنية مسطحة[سطحية] إنه توالدها son engenderment، توالد تسجله هذه "الظاهرة اللسانية" [...] يتموقع التدليل إذن داخل هذا التوالد الذي يمكن أن نراه أو نحصل عليه بصفة مضاعفة، وذلك من

خلال توالد النسيج اللغوي الذي سيمثل السطح وتوالد "الأنا" الذي سيقدم التذليل، أي العمق المنتج للدلالة"¹⁵

تفرض خصوصية النص إذن بالنسبة لكرستيفا، ضرورة إيجاد خطاب يعيها وهو ما يمكن أن تقوم به السيميائيات، غير أن الأطر التي ظهرت وتطورت فيها السيميولوجيا والمشاكل التي تواجهها في التعامل مع العلامة حين يتعلق الأمر بالنصوص، يدخلها في تحديات كبيرة تجعلها تعيد النظر باستمرار في أسسها ومنطلقاتها، وتحولها كلما تعلق الأمر بتحديات العلامة النصية والمذلولات. وعليه، سيكون العلم المناسب هنا حين يتعلق الأمر بالنص ومعناه هو السيماناليز التي تستند إلى الرؤية السوسيرية للسيميولوجيا وتنطلق منها ومن نقائصها لبناء علم جديد يخرج النص من المنطق اللغوي السوسيري إلى منطق يحترم خصوصيته، تتقاطع فيه علوم أخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس حتى تخرج التحليل من سذاجة الوصف وضعف التفسير الذي ستقع فيه السيميولوجيا لو ظلت لوحدها¹⁶. ورغم ما يبدو من تمايز وفق هذا التقديم للعلم الجديد، وهو ما تصرح به في أكثر من سياق، كقولها: "أكثر منها سيميولوجيا أو سيميائية يتأسس هذا العلم باعتباره نقدا للمعنى، لعناصره ولقوانينه، يتقدم باعتباره سيماناليز"¹⁷ إلا أن هذه التفرقة الظاهرة سرعان ما تتراجع أمام عودة مصطلح السيميائية وفق تصور خاص يعمل على الكثير من الممارسات التي تعتبرها عبر لسانية تشتغل من خلال اللغة إلا أنها تتجاوز ما هو لغوي¹⁸

سيكون من نافلة القول الإشارة هنا إلى الدور الذي لعبته اللسانيات في تطوير مفهوم النص ومن ثمة الحقل الذي تقترحه جوليا كرسيفا. ذلك أن التعريف القائل إن النص هو: "السطح الظاهر من العمل الأدبي، هو نسيج الكلمات المستخدمة في العمل والمنسقة بحث تفرض معنى مستقرا وموحدا قدر الإمكان"¹⁹ يعود إلى الأصل الكلاسيكي لفكرة العلامة وفصلها إلى جزأين يغلق كل منهما الآخر، كما يرتبط وفق هذا المعنى بفكرة الحقيقة حين نتظر منه معنى

واحدا ومستقرا [بالنظر لعلاقة الكتابة بالدين] وهو ما فرض -حسب بارث- علاقة خطيرة ودموية في كثير من الأحيان بين النص والعالم²⁰. وقد حركت اللسانيات أزمة العلامة، وكان اللسانيون أنفسهم من طوروا وغيروا نظرية النص، ما أعطى اللسانيات، جراء هذا التحول، دورا مضاعفا:

1 جعل الاقتراب من المنطق الباحثين يغيرون فكرة الصلاحية بـ *validité* واكتشاف لا نهائية التحولات اللغوية للخطاب بعد أن كان مغلقا.

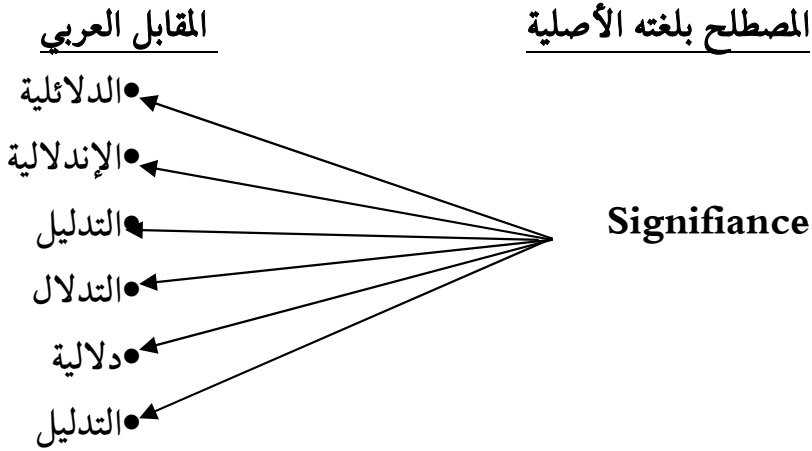
2 صار جزء كبير من الأدب جزءا من اللسانيات تحت اسم الشعرية ما جعله يفلت من الاعتبار التاريخي [اعتبار النص تاريخ أفكار وأجناس]

3 احتاج تحليل الخطاب الأدبي إلى فكرة النص ذلك أن اللسانيات تتوقف عند حدود الجملة بينما نحتاج إلى فكرة أكبر سيميائيا هي النص.

ولقد أيد رولان بارث Roland Barthes الحقل الذي اقترحه كرسيفا ودافع عنه في مقاله "نظرية النص" مشيرا إلى الوضعية التي كانت الدراسات النصية قد وصلت إليها حيث صار النص بالنسبة للسيميائية الأدبية الصارمة *stricte* هو ما يحمل كل الظواهر اللسانية، وهي الممارسة التي أغلقته واعتبرته موضوعا للدراسة لا يحيل إلا على نفسه، ما منع -وفق ما لاحظته الناقد- أي تحول معرفي²¹. ذلك أن أي تحول في هذا المجال يسمح ببناء نظرية نصية جديدة، سيكون بحاجة إلى قبول ميادين معرفية ومرجعية أخرى هي المادية التاريخية والتحليل النفسي، مادام - تعميق علم سابق - حسبه - غير كاف بل ينبغي ملاقة علوم مختلفة، ينتج التلاقي بينها موضوعا جديدا، وهي في هذه الحالة: المادية والفرويدية والبنوية، وهو ما يحيل مباشرة على سيماناليز كرسيفا وقبلها محاولات باختين حتى وإن لم تكن واضحة تماما.

نواجه، مع هذين المصطلحين، إشكالية تتعلق بمفهوم السيماناليز الذي يتأرجح بين مصطلحين، وذلك في سياق الاستخدام الغربي للمصطلح ناهيك عن التحولات التي تلحق بالمصطلح في المدونة النقدية العربية حيث نجد تعددا في

المقابلات الخاصة بالمصطلحين السابقين، إضافة إلى صعوبة تحديد المفهوم الخاص بالتدليل باعتباره مادة هذا الحقل وما نقترحه هنا من مقابلات ليس إلا عينة مما تضح به الساحة النقدية العربية:



التصحيح Paragramme

من داخل الحقل السابق، يواجهنا مصطلح التصحيح الذي لا يقل أهمية عن المصطلحات السابقة من حيث الحضور والأهمية والإشكالية وقد يكون أكثرها إشكالية باعتباره مصطلحا يقع في مفترق طرق ثلاث: الدرس اللساني العربي القديم والدرس اللساني الغربي والدرس النقدي، الذي حور من مفاهيمه اللسانية وغير بنيته بما يتواءم وطبيعة المفهوم النصي الذي صار يمثله.

يقابلنا هذا المصطلح عند كل من جوليا كرستيفا وميشال ريفاتير من خلال مقولاتهما الخاصة بالتناص، حيث يمثل الوحدة الشعرية التي يكون فيها المقطع مزدوجا تغيب فيه أحادية الرسالة وذلك عبر بتجاوزه القوانين اللغوية²² حيث تصبح الرسالة الشعرية مضاعفة بهذا الشكل، لان الكلمة تحوي معنيين (دليل مقابل مدلولين حيث يبقى هناك مدلول آخر يستخرج من اللاشعور

عبر لعبة دالية) ويبدو أن دوسوسير اكتشف ذلك دون أن يتمكن من
تبريره²³ باعتباره واحد من المصطلحات التي استخدمها في معرض حديثه حول
الانagramات les anagrammes²⁴

لقد افترضت فكرة التصحيف، عند كرسيفا وجود سيميائية تأخذ بعين
الاعتبار غياب نموذج للكلام²⁵، حيث أثارت الانتباه إلى دراسة إنتاج المعنى
الذي يسبق الكلام، أي المعنى المنتج قبل الكلام المنطوق وقامت بدراسة
الفضاء الشعري باعتباره فضاء تصحيفيا ذلك انه لا يخضع للمنطق اللغوي
وغير قابل للإدراك من خلاله²⁶ بل يمتلك منطقته الخاص، الذي لا تكون فيه
اللغة حاملة لدلالاتها المباشرة كما في الخطاب التواصلية، وهو فضاء دال رغم
حالة الرفض التي يواجهها²⁷

إن اللغة الشعرية لغة ذات طابع تكتسي فيه هذه الأخيرة إمكانيات
وخصائص تتجاوز الطابع المنطقي لها، وتركن إلى طبيعة الاشتغال الرمزي،
كما تملك خاصية التجاوز أو اختراق القوانين النحوية وذلك بقدرتها على
أن تكون مضاعفة وحاملة لمدلولات غير المدلولات المباشرة في ذات
الوقت. وهذا التصور التصحيفي للغة يضعنا أمام ثلاث تصورات كبرى:

1. لا تنتهي السنن code في اللغة الشعرية.

2. النص الأدبي كيان مضاعف: كتابة/ قراءة.

3. النص الأدبي شبكة من العلاقات.

ورغم علاقة التصحيف بلاكانيان Lacan واللاوعي إلا أن
كرستيفا تنبه إلى أنه لا يتموقع في اللاوعي، بل هو ممارسة سيميائية خاصة
لا يمكن اختزالها في أي من الممارسات الأخرى التي قد لا تفهمها حقها.

نجد أنفسنا أمام مصطلح متعدد وإشكالي في آن نسجل معه ما يلي:

1. تتسم التعريفات التي تقدمها المدونة الغربية حول

التصحيف بالغموض والتعقيد وارتباطها بالمعنى اللساني²⁸

بالرغم من أن مفهومها في اللغة الشعرية، وفق ما وضعته كريستيفا، يتجاوز ذلك. حيث لا نجد حضورا كبيرا لهذا المصطلح في المعاجم المصطلحية وإن وجد فهو لا يتجاوز حالات شرح عامة، كما يبينه المثال التالي الذي نعرض من خلاله التعريف الذي يقدمه قاموس المصطلحات الأدبية:

"Anagramme d'un mot est un autre mot obtenu avec les même lettres dans un ordre différent telles ces deux anagrammes qui se répondent dans la phrase de rose

O mon crane étoile de nacre s' étiole"²⁹

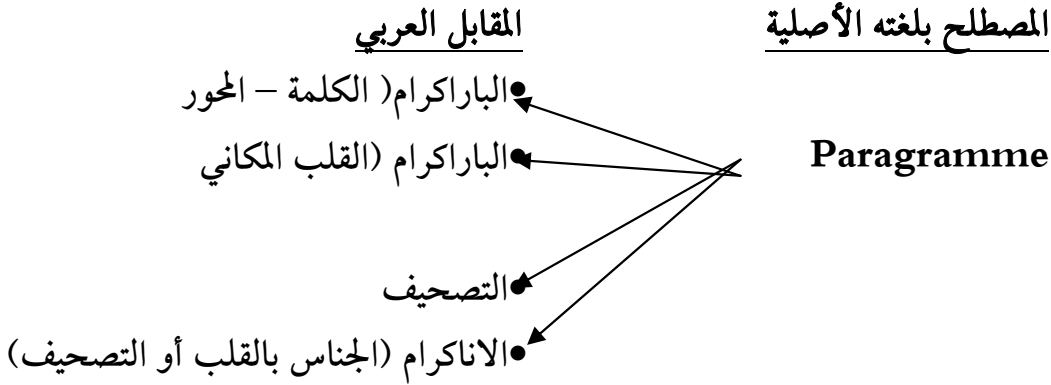
2. في الوقت الذي أكدت فيه جوليا كريستيفا على علاقة مصطلح التصحيف بدوسوسير، يثبت هذا المصطلح تأثيرها بلاكان، وكذا تأثيرها بفكرة التنظيم اللاعقلاني للغة عند باختين، حيث تجعل كريستيفا من التصحيفية مقابلا للحوارية تقول: "الممارسة السيميائية للكتابة: التي سنسميها حوارية أو تصحيفية paragrammatique 30".

أما ريفاتير، فيحضر التصحيف لديه في سياق بحثه عن خصوصية النص الشعري ودلالته، إذ يتفق الجميع على أن النص الشعري يمتلك خصوصية مقارنة بباقي النصوص، خاصة إذا ما قارناه بلغة الاستعمال اليومية. إلا أنهم يختلفون حتما في شرح أو وصف الآليات الدلالية m semantique التي تحرك الشعر، فكل تفسير يمنح قراءة خاصة به تختلف عن الأخرى. كأن يهتم بالاستعارات والكنائيات أو يهتم بالطابع الغامض للنص الشعري... إلخ غير أن ما يعاب على مثل هذه القراءات هو طابعها الخطي. ذلك أن فك المعنى للواقع يبخس النص الشعري حقه، أو يمنع عنه المعنى وقد أظهر ريفاتير ذلك من خلال دراسة بعض

النماذج الشعرية التي تمت قراءتها سابقا، وتوصل دارسوها إلى معان حوت مغالطات كثير. وحاول بدل البحث عن الخطية التي لا يمكنها أن تظهر إلا المعنى العادي، البحث خارج الخطية بغية الوصول إلى التدليل في قراءته للشعر وللنص الأدبي عموما.

وعلى غرار كرسيفا، فقد حاول ريفاتير أن يقترب من المفهوم السوسيوي للتصحييف وكان عمله ذا توجه مزدوج، فهو يقترب من مفهوم دو سوسير من جهة، بينما يسعى، في توجهه، إلى فهم دلالية النص الأدبي signifiante، حيث تحدث بعض الآثار النصية مشكلة أثناء عملية القراءة، بحيث يحتاج القارئ إلى العودة بهذه العبارات أو الجمل أو الكلمات الإشكالية إلى نصوص أخرى، حتى يتمكن من فهم الجملة وإصلاح الخلل الذي يحدث أثناء عملية القراءة. وهو ما يجعلنا -بمثل هذا التوجه- أقرب إلى التصحييفية بالمعنى الذي تستخدمه جوليا كرسيفا^{1 3} منه إلى اللسانيات خاصة بالنظر إلى حقل الاستعمال المشترك بينهما والذي ورد فيه هذا المصطلح: الشعر.

وقد رسم دخول هذا المصطلح ساحة النقد العربية صورة مرتبكة لا نكاد نفهم من خلالها ما يقصد إليه:



حيث تراوحت معظم الاستخدامات بين تعريب المصطلح مباشرة تفاديا للوقوع في إشكالية المفهوم وترجمته بالتصحييف الذي سيقف بدوره موقفا إشكاليا

بالنظر إلى ميراثه اللغوي العربي القديم^{2 3}، وما يراد منه في هذا المقام. كما نسجل ضعف حضور هذا المصطلح عربيا وصعوبة إيجاد مفاهيم واضحة عنه حتى من خلال عملية الترجمة التي قام بها فريد الزاهي لأبحاث جوليا كريستيفا حيث يغيب البحث الخاص به عن مجموع النصوص المترجمة. وهو ما يزيد من غموض وصعوبة التعامل مع هذا المصطلح.

لن يكون من قبيل المبالغة القول إن حقل النقد المعاصر يدين للسانيات وأبحاثها بقسط كبير من وجوده وتطوره. وليس المصطلح إلا جزءا من هذا الدين، غير أننا نحتاج -عربيا- إلى تعميق فهم هذه العلاقة على جميع مستوياتها وهو ما ينبغي أن يكون رهان واضعي المصطلح الذي يعاني في قسط كبير منه -سواء تعلق ذلك بالنقد أو باللسانيات- من الشتات والإسراف اللغوي والغموض المفاهيمي، ما يصعب التعامل مع هذه الحقول بوجه عام. وما قدمناه هنا، لا يمثل إلا جزءا يسيرا من العلاقات الإشكالية التي تعيشها المنظومة المصطلحية، والتي علينا فك أسبابها والخروج بها من الدوائر الحالية المغلقة، بغية تقليل تأثيراتها السلبية على الدراسات الأكاديمية والسياقات المعرفية، إن لم نقل تجاوزها.

هوامش

¹ Alain Rey, Terminologie noms et notions, que sais je, presse universitaire de France, 1979, p18

² Ibid , p91.

³ Voir Mikhaïl Bakhtine (V. N.Volochinov), Le marxisme et la philosophie du langage, Minuit 1977, p

⁴ Ibid, p31.

⁵ Ylvian Auroux, La philosophie du langage, presse universitaire de France, 2008.

⁶ Ibid , p32.

⁷ Tzvetan Todorov, Mikhaïl Bakhtine: Le principe dialogique suivi des écrits du cercle de Bakhtine, Seuil, 2Ed:1996, p95.

⁸ انظر، سليمة عداوري، شعرية التناس، درا رؤية، القاهرة، ط01: 2012، ص48.

⁹ Voir Mikhaïl Bakhtine :Esthétiques de la création verbale, trad: Alfreda Aucouturier, Gallimard1984,p301.

¹⁰ Mikhaïl Bakhtine, la poétique de Dostoïevski ,p25.

¹¹ نقصد بذلك الاختلاف بين قارئ باختين تزفيتان تودوروف وجوليا كرسيفا، حول هذا المصطلح وإقرار كل واحد منهما بكونه صاحب عملية النقل رغم أن المصطلح قد ورد عند الناقد، وهو ما يوقعنا في إشكال التعامل مع المصطلحات في أصلها.

¹² Julia Kristeva: “l engendrement de la formule” in Séméiotiké, p218.

¹³ Jean Le Galliot, Psychanalyse et langage littéraire, Nathan :1977, p215.

¹⁴ Julia Kristeva, op cit, p11.

¹⁵ Ibid,p219.

¹⁶ J Kristeva, Le langage cette inconnu, une initiation à la linguistique, Seuil 1981, p

¹⁷ Julia Kristeva:”le texte et sa science” in Séméiotiké, p21.

¹⁸ Ibid , p52.

¹⁹ Roland Barthes: « théorie de texte » Encyclopédea Universalis, p461.

²⁰ Ibid, p462.

²¹ Ibid, P462.

²² Jean le Galliot, op cit, p235.

²³ Idem

²⁴ Ibid, p114

نشرت المادة الأولى لدوسويسير حول الباراغرام والاناغرام في كل من مجلتي Mercure de France و Tel Quel 37. حسب ما تورده جوليا كرسيفا.

²⁵ Ibid, 216.

²⁶ Voir Julia Kristeva Poésie et négativité, in séméotiké, p210.

²⁷ سواء من قبل المنطق أو التأمل الفلسفي الذي يعتبره غير قابل للمعرفة ، راجع المرجع السابق، ص 210.

²⁸ في قاموس اللسانيات يعرف التصحيف على أنه:

"on appelle paragrammatisme un trouble du langage parlé consistant en une desorganisation syntaxique des phrases...ou en une substitution de formes gramaticales, ou néoformes aux formes correctes attendues »،

²⁹ Michel Jarrety, Lexique des termes littéraires, Librairie generale francaise,2001,p30.

³⁰ Julia Kristeva: "pour une semiologie des paragrammes" in Séméiotiké , p136.

³¹ Voir Le Galliot, op cit, p235.

ولفهم التصحيف عند دوسوسير وانزياحه إلى الممارسات النصية عند كرسيتيفا، يمكن العودة خاصة إلى كتاب ستاروبنسكي،
Les mots sous les mots,

³² التصحيف فيما يعرفه التراث العربي هو نطق الكلمة على غير معناها ويسمى تحريفا عن الموضوع فقد سجل في محاضرة أدباء أن أحدهم قرأ حديثا للنبي صلى الله عليه وسلم "كان النبي يكره النوم إلا في القدر" والصحيح و إنما "الثوم" وقرأ آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم يجب الغسل يوم الجمعة و الصواب هو الغسل وليس الغسل، وأحضر ذات يوم مرة جعفر بن سليمان الهاشمي خطابي المقدم هزيلي لقوله.

يا ابن الزواني من بني معاوية * أنت لعمرى منهم ابن الزانية

فلما أحضر لتوضيح ما قال: قال إنما قلت يا ابن الروائي و أنت ابن الرائية أي اللواتي ينحن على موتاهم، فالتصحيف من الناحية الضمنية هو القيام بتعجيم حرف أو كلمة أو تحريفها عن موضعها سلفا. فهو يبتعد عن الاشتقاق في اللغة العربية باعتبار أن الاشتقاق يشمل المصدر،الذي يدل بطبيعته على زمان مطلق بينما الفعل يدل على زمن معين، وعندما لا يظهر زمن يحدث الفعل يشتق من لفظه كلمة تدل على تعيين الأزمنة (الماضي - الحاضر - المستقبل) وبذا فالتصحيف إنما يراد به تحويل الكلمة إلى كلمة أخرى ذات دلالة ولا تنتمي لأصل الكلمة وإنما تتقارب معها، كقول حماد الراوية عندما قرأ الآية القرآنية "عذابي أصيب به

من أشاء " فقد قرأ الكلمة الأخيرة بأساء، فصارت الآية "عذابي أصيب به من أساء" فالكلمتين على تشابههما في الشكل يختلفان بفعل التصحيف في المعنى، وهذا جرم يراد به تحريف الكلام عن مواضعه، ومهما كانت نواذر التصحيف المسجلة عند الأعراب كثيرة فهي مستقبحة و مستهجنة لكونها معبرة إلى تحريف أقوال العباد.
